

رثاء معالم الحضارة في الشعر الأندلسي المساجد - أنموذجا -

Lament for Indmarks of civilization in the Andalusian Poetry

- Mosques as a model -

كريمة عشوش*

راج بوشعشوعة

جامعة عباس لغرور-خنشلة-

جامعة عباس لغرور-خنشلة -

مخبر الموسوعة الجزائرية الميسرة

Rokiakhawla@gmail.com

Karima.achouche@univ-khenchela.dz

تاريخ القبول: 2024-12-16

تاريخ الإرسال: 2024-04-25

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن مدى حضور رثاء المساجد في الشعر الأندلسي، فالمساجد كما نعلم تمثل أهم المعالم الدينية الإسلامية وأهم مصدر للإشعاع العلمي والثقافي في بلاد الأندلس، ونظرا لهذا الدور المحوري والأساسي الذي أنسجت به بيوت الله عز وجل، فقد كانت من أبرز الأماكن التي استهدفتها النصارى، فكلما سقطت مدينة أندلسية بأيديهم، كانت المساجد أولى المعالم التي تطالها يد الخراب، وذلك بحرقها أو تحويلها إلى كنائس أو تدنيسها بجعلها أماكن لشرب الخمر وأكل لحم الخنزير. إنَّ هذا التَّجْيُّ والاعتداء بأبشع الطرق والوسائل على بيوت الله كان له بالغ الأثر على نفسيّة أهل الأندلس عامة والشعراء خاصة. فجسّدوا هذه المحنة التي أصابت الدين في معالمه الكبرى ببلاد الأندلس في شعر رثائي متّقد العاطفة لا يزال يلفح قارئه على مر العصور. الكلمات المفتاحية: الرثاء؛ المساجد؛ الشعر الأندلسي؛ معالم الحضارة.

Abstract:

This study aims to reveal the extent of the presence of lament for mosques in the Andalusian poetry. Mosques represent the most important Islamic landmarks and the most prominent source of science and culture in Andalusia. Given this pivotal and essential role that mosques were characterized by, they were badly targeted by the Christians. Whenever they conquered an Andalusian city, mosques were the first landmarks to be destroyed, either by burning them

*- المؤلف المراسل.

or turning them into churches or desecrating them by making them places for drinking wine and eating pork. This brutality and aggression with the most abominable ways and means on mosques had a great impact on the psychology of the people of Andalusia in general and the poets in particular. They embodied this ordeal that afflicted religion in its major landmarks in Andalusia in an elegiac poem filled with emotion that touches readers of all times.

Key words: lament; mosques; Andalusian poetry; Landmarks of civilization.

مقدمة:

اتسعت أطراف الرقعة الجغرافية للعالم العربي الإسلامي قديماً، إذ امتدت من شبه الجزيرة العربية مروراً بالمغرب وصولاً إلى بلاد الأندلس، هذه الأخيرة التي فتحها المسلمون سنة (92هـ)، وظلّت تحت حكمهم زهاء ثمانية قرون، وقد عرفت بلاد الأندلس في هذه الفترة ازدهاراً كبيراً في شتى المجالات؛ اقتصادياً، اجتماعياً، سياسياً، ولا سيما الجانب العلمي والثقافي، فقد اهتم الأندلسيون بالتعليم في مختلف تخصصاته، وتبعاً لذلك تعددت الأماكن التي كانت مصدراً للإشعاع العلمي والثقافي، ومن أهم هذه الأماكن: قصور الخلفاء والأمراء المدارس، الزوايا، المساجد والجوامع.

وكما هو معلوم فقد كان للمساجد والجوامع الدور المحوري في الحياة الثقافية والعلمية بالأندلس، ولكن أغلب هذه المساجد قد تعرضت إثر النكبات والفتن التي عرفت بها بلاد الأندلس إلى تعطيل دورها الديني والثقافي نتيجة لما لحقها من خراب وتغيير لمعالمها، وذلك بحرقها أو تحويلها إلى كنائس، وكان هذا الفعل يتكرر في كل مرة من قبل النصارى، فكلما سقطت مدينة بأيديهم، أصبح بناء المسجد الذي كان يصدر بصوت الأذان بناء كنسياً تدق فيه أجراس النواقيس، وكل هذا مما لا شك فيه كان له أثره البالغ على نفسية أهل الأندلس عامة والشعراء خاصة، فندبوها وبكوها بكاء حاراً سجلوا فيه هذه المحنة ووظفوه كمحفز يبعث على إيقاظ ضمائر المسلمين في الأندلس وغيرها من البلاد الإسلامية، حتى يهبوا للدفاع عن دينهم ومقدساتهم.

وانطلاقاً من هذا الدور الذي حملته الشعراء على عاتقهم بأن جعلوا من شعر الرثاء رسالة يستنهضون من خلالها همم الشعوب لأجل الدفاع عن حماهم، يمكننا طرح التساؤلات الآتية:

- إلى أي مدى استطاع شعراء الأندلس تجسيد حجم مأساة ومحنة المساجد في شعرهم الرثائي؟ وهل حظيت المساجد بقصائد رثاء خالصة؟ أم كان رثاؤها مقطوعات شعريّة متناثرة بين ثنايا قصائد رثاء المدن؟ وهل يمكننا عدّ رثاء المساجد شعراً معبراً عن الموقف الانهزامي للشعراء؟ أم أنّه شعريّ يعبث على استهزاء الهمم وإذكاء جذوة الحماس في النفوس حتى يهبوا لاسترجاع ما فُقد من مجد وعز؟ .

وللإجابة عن مختلف هذه التساؤلات سنتطرق في بحثنا هذا لعرض وتحليل النماذج الشعرية الرثائية التي جمعناها من مختلف المصادر الأدبية وأمات الكتب، والتي جسّد فيها أصحابها حجم المآسي التي تعرضت لها مساجد المسلمين بالأندلس، حيث كان لها وقع مرير على نفسيّتهم، هذه المראה ترجمتها كلماتهم وعبرت بصدق عن حجم وهول ما عايشوه من محنة وما تجرعوه من ألم، وقبل عرضنا لهذه النماذج الشعريّة تجدر بنا الإشارة إلى التعريف بغرض الرثاء وكذلك التأصيل لفن رثاء المدن في الشعر العربي القديم.

1. تعريف الرثاء:

1. 2. لغة:

لقد تعددت المعاني اللغويّة لكلمة "رثاء" في معاجم التراث العربي جاء في: معجم العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (ت175هـ): "رَثَى فُلَانٌ فُلَانًا يَرِثِيهِ رِثْيًا وَمَرِثِيَّةً، أَي: يَبْكِيهِ وَيَمْدَحُهُ وَالاسْم: الْمَرِثِيَّةُ. وَلَا يَرِثِي فُلَانًا لِفُلَانٍ، أَي: لَا يَتَوَجَّعُ إِذَا وَقَعَ فِي مَكْرُوهِهِ، وَإِنَّهُ لَيَرِثِي لِفُلَانٍ مَرِثِيَةً وَرِثِيًّا. وَالْمَرِثِيُّ: الْمُتَوَجَّعُ الْمَفْجُوعُ"¹.

وجاء في مقاييس اللغة لابن فارس (ت395هـ): "الرء والثاء والحرف المعتل أصيلٌ على رقة وإشفاق. يقال: رَثَيْتُ لِفُلَانٍ: رَقَقْتُ. ومن الباب قولهم: رَثَى الْمَيِّتَ بِشَعْرٍ"².

من خلال هذه الاشتقاقات اللغوية التي جاءت في معاجم التراث العربي، نستخلص أنّ المعاني اللغوية لكلمة "رثاء" متقاربة فيما بينها، فكل من "الرقة والاشفاق والتوجع" من المشاعر النفسيّة الحزينة التي تحرك العاطفة الإنسانية، وتدفع بصاحبها الذي يعيش

¹. أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، ج8، تح: مهدي المخزومي وإبراهيم

السمرائي دار ومكتبة الهلال، ص234، (مادة رثى).

². أبو الحسين أحمد بن فارس، (1979)، معجم مقاييس اللغة، ج2، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر

للطباعة والنشر، سوريا، ص489، (مادة رثى).

تجربة الحزن والأسى والتوجع إلى التعبير عن ذلك في صور بيانيّة صادقة ينتج عنها بكاء الميت وعدّ محاسنه شعراً أو نثراً.

2.2. اصطلاحاً:

الرثاء في الاصطلاح هو: "ذكر مناقب الميت ومآثره ومفاخره ووصف الحزن عليه، والجزع لفقده، وبيان مكانته في قومه وأثره في مجتمعه الذي كان يعيش فيه"¹.

وقد ذهب أغلب النقاد القدامى في تعريفهم للرثاء إلى الخلط بينه وبين المدح، حيث جعلوا من الرثاء مدحاً إلا أنه موجه إلى الشخص الذي فارق الحياة.

ويُعدُّ الرثاء من الأغراض الشعريّة الغنائيّة التي يزخر بها تراثنا العربي الضخم، فقد عرف العرب هذا الفنّ الشعريّ منذ العصر الجاهلي، وهو من أصدق الأغراض الشعريّة إحساساً وعاطفة، لأنّه يعبر عن تجربة الحزن والألم التي تكبّدها النفس المكبوتة حين فقدت عزيزاً عليها، فلم تجد أمامها بداً سوى التعبير عن هذه التجربة الشعوريّة الحزينة بكلماتٍ صادقةٍ تعكس صدق إحساس ومشاعر صاحبها.

فالشاعر حينما ينظم قصيدة الرثاء تكون نفسه مثقلة بالهموم والأحزان وقلبه منفطر حزناً، ولذلك حين قيلَ لِأَعْرَابِيٍّ " مَا بَالُ المراثي أَشْرَفَ أشْعَارُكُمْ؟ قال: لَأَنَّا نَقُولُهَا وقلوبنا محترقة"².

إنّ هذا السؤال يدل على حذق وفطنة السائل وقوة ملاحظته حين أقرباً المراثي أجود أشعار العرب، كما أنّ الإجابة المختصرة والصريحة من قبل الأعرابي حين علل سبب هذه الجودة بقوله "نقولها وقلوبنا تحترق" تبين وتؤكد أنّ الصدق العاطفي هو أساس جودة الشعر وهذا ما جعل الرثاء أجود الشعر وأشرفه.

وينقسم الرثاء من حيث طبيعة المراثي إلى: (رثاء النفس-رثاء الأفراد-رثاء الأماكن)، وضمن هذا الأخير يندرج (رثاء المساجد) تحت مسمى (رثاء المدن).

¹. محمد عبد المنعم خفاجي، (1999)، الحياة الأدبية في العصر الجاهلي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص 315.

². شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الإرب في فنون الأدب، ج 5، تج: يحي الشامي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص 161.

3. رثاء المدن المفهوم والنشأة:

3.1. تعريفه:

يعد فن رثاء المدن من المواضيع التي عرفها الشعر العربي، وهو يمثل ندب المدن التي كانت عرضة لمختلف الأحداث مما أدى إلى خرابها وهدمها، سواء كانت هذه الأحداث طبيعية كالزلازل والفيضانات، أو بشرية كالحروب والتنازع عن السلطة¹.

ومهما تعددت الأسباب والعوامل التي أدت إلى خراب هذه المدن سواء بفعل العوامل الطبيعية أو البشرية، إلا أن هذا الخراب مما لا شك قد ترك ألماً وحزناً عميقاً في نفوس أصحابها، ترجمه وأبان عنه قوة العاطفة وصدق الإحساس الذي اعتلى القصائد التي نظمت في رثاء المدن والأوطان.

3.2. نشأته:

يعد رثاء المدن من الأغراض الشعريّة المحدثّة التي برزت في العصر العبّاسي فهو غرضٌ شعريٌّ متأخّر نسبياً عن الرثاء بصفة عامة من حيث ظهوره كغرض شعري قائم بذاته، ويمكن تحليل ذلك بأنّ الإنسان العربي لم تتوطّد علاقته بالمدينة بالشكل الذي توطّدت به في العصر العبّاسي، خاصة مع النقلة الحضارية التي شهدها الفرد العربي آنذاك، إضافة إلى ذلك أنّ المدن الإسلاميّة لم تُعانِ من ويلات الخراب والدّمار مثلما عانتها مدن العراق، وفي ذلك يقول عزّ الدين إسماعيل: " المدينة في العصر العبّاسي قد صارت تمثّل كيانه له معنى ووجود في نفوس أهلها، وإنّ أهلها قد صاروا تربطهم بها روابط كثيرة، مادّيّة ومعنويّة. وقد تولد في نفوسهم-نتيجة لذلك -شعور إنساني نبيل إزاء المدينة، عبّروا عنه في صدق وحرارة عندما رأوا الخراب والدّمار يحل بهم، كأنّهم فقدوا عزيزاً لديهم"².

وقد برز هذا الفن الشعري في المشرق العربي إثر الصّراع الذي وقع بين الأُميين والمأمون، فكانت مدينة بغداد ضحية هذا الصراع، كما وقعت البصرة ضحية ثورة الزنج، وبذلك فقد ألهمت الحادثان قريحة الشاعرين ابن الرومي والخريبي في نظم أولى مرثي المدن في الشعر العربي.

¹. ينظر: عبد الله عبد الرّحيم السّوداني، (1999)، رثاء غير الإنسان في الشعر العبّاسي، ط1، المجمع

الثقافي أبوظبي، الإمارات العربيّة المتّحدة، ص29.

². عزّالدين إسماعيل، (1975)، في الأدب العبّاسي الرؤية والفن، دار النهضة العلميّة، بيروت، لبنان،

وإذا ما اتجهنا إلى المغرب الإسلامي نلاحظ أن هذا الفن الشعري قد برز نتيجة للأحداث المختلفة والفتن التي شهدتها هذه البلاد فبعد انهيار الخلافة الإسلامية بالأندلس واندثار عقدها انقسمت الدولة الواحدة إلى مجموعة من الدويلات عرفت بدويلات الطوائف، وجد الإسبان آنذاك الظروف الملائمة لمحاربة المسلمين في تلك البلاد وظهر ما يعرف بحرب الاسترداد. ونتيجة لهذه الحرب سقطت بعض المدن الأندلسية في يد النصارى، "إذ تعتبر واقعة "بريشتر" سنة 456هـ أول حملة صليبية على الأندلس الإسلامية"¹، انتهت بالاستيلاء على هذه المدينة والتي تعد أول هزيمة تلقاها المسلمون بعد أن تبذرت وحدتهم بالأندلس.

ثم توالى بعد ذلك سقوط المدن الأندلسية تباعاً، وكان من الطبيعي أن يقف الشعراء إزاء ما عايشوه من تهاوي المدن وسقوطها وخروجها من دائرة المسلمين وحماهم موقف الباكي المتألم المعتبر، وبذلك فقد ارتفعت أصواتهم مصورين هذا الخطب الذي ألمّ بالمسلمين في قصائد رثائية عكست حجم المأساة التي تكبدوها.

ولم يسلك الشعراء في قصائدهم الموقف الانهزامي المتحسر على ما فقدوه من عز فحسب، بل سعوا أيضاً إلى تحريض المسلمين وشحن همهم في صرخات شجية تبعث على استرجاع ما ضاع من مجد، وفي هذا الصدد يقول محمد رضوان الداية: "ظهر في الأندلس ضرب من الشعر كان صدى مباشراً وغير مباشر لأحداث الحرب الدائرة بين المسلمين في الأندلس وخصومهم من الدول الإسبانية. وهو أدب يهدف إلى تصوير نكبة الأندلسيين بفقدان أجزاء من بلادهم وتحريض القوم على الصمود ومواصلة القتال، وهو يدعو المسلمين في برّ العدو وما وراءه لإنقاذ الأندلس والمشاركة في الجهاد المفروض"².

وفضلاً عن سقوط المدن بيد النصارى في الأندلس فقد كانت الفتن والثورات في المغرب العربي والأندلس تحدث خراباً كبيراً في تلك المدن وتدفع الشعراء لرثائها، كرثاء القيروان بعد اجتياح الهلاليين وكذلك رثاء قرطبة بعد الفتنة البربرية.

¹. سامية جباري، (2016)، تجليات رثاء المدن والممالك في الشعر الأندلسي، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، (الجزائر)، مجلد9، 2016، العدد1، ص1009.

². علي الغيلوفي، (2019)، إنشائية القصيدة في شعر رثاء البلدان إلى نهاية القرن السابع الهجري، ط1، الناشر، زينب للنشر والتوزيع، تونس، ص 73.

ورثاء المدن في أدبنا العربي القديم، لم يقتصر فيه الشعراء على المدن التي عصفت بها مختلف الفتن والأحداث السياسية، بل تجاوزوا ذلك إلى رثاء المدن التي لحقها الدمار والخراب بسبب الظواهر الطبيعية على نحو ما يظهر عندما "رثى أسامة بن منقذ بمطولاته بني وطنه الذين قضوا تحت الأنقاض بعد الزلزال الذي دمر حصن شيزر بالشَّام سنة 551هـ-1156م¹. وغيرها من الأمثلة كثيرة.

وعليه يمكننا القول إنَّ للمدينة مكانة خاصة في نفسية الشعراء، فهي تنزل منزلة الأهل والأحباب، لذلك عزَّ عليهم رؤية الخراب والدمار ينال منها، فرثوها وندبوها بقصائد بقيت شاهدة على حجم المآسي والمحن التي عرفتھا المدن العربية عامة والأندلسية خاصة، ومما لا شك فيه، أنَّه كلما سقطت مدينة بالأندلس في أيدي الأعداء كانت بيوت الله عزَّ وجلَّ أولى المعالم التي تطالها يد التَّخريب، وذلك بحرقها وهدمها أو تحويلها إلى كنائس، إنَّ هذا التَّجنيُّ على هذه الأماكن المقدسة قد أثار شجون الشعراء وحرك وجدانهم فرثوها وبكوها في شعرهم.

4. حضور رثاء المساجد في الشَّعر الأندلسي:

يتَّصل رثاء المساجد في الشَّعر الأندلسي اتصالاً وثيقاً ومباشراً برثاء المدن الأندلسية التي سقطت بيد النُّصارى، فكلمًا استولوا على المدن الأندلسية، كانت المساجد أولى المعالم التي يعيشون فيها فساداً وذلك بحرقها أو تدميرها أو تغيير معالمها الإسلامية إلى نصرانية، حيث يتم استبدال الأذان بقرع النِّواقيس وكذلك تنصيب الصُّلبان على منابرها. كلُّ هذه المآسي جعلت الشَّاعر الأندلسي يبدع في فن رثاء المدن ويتألَّق في نظمه، وفي ذلك يقول " رجب البيومي": "ومن الإنصاف أن نذكر أنَّ الأندلس قد برعت بهذا اللون براعة مشهودة، فقد وجدت في مأسها الدامية، ما أذكى عواطف الحسرة واللَّهف، فاندلعت زفرائها الشَّعرية تتحدث عن المساجد المتهمة والكنائس المشيدة والأذان الصامت والنَّاقوس المجلجل! والحق أنَّ الشُّعور الديني المؤجج بالحسرة والندم قد جعل لقصائد الأندلس حرارة متَّفدة لا تزال تلمح قارئها على مَرِّ العصور"².

¹ . المرجع نفسه، ص ن.

² . محمد رجب البيومي، (1980)، الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير، ط1، جامعة الإمام محمد بن

سعود الإسلامية، ص221.

إنَّ مختلف الاعتداءات والمحن التي تعرَّضت لها مساجد الأندلس، قد جسَّدها الشعراء في شعرهم بكلمات تملؤها الحسرة والحزن والألم، حيث تعددت أساليب النَّصاري في العبث بمقدَّسات المسلمين وذلك بتحويلها تارة إلى كنائس وتارة أخرى تدنيسها وجعلها أماكن لشرب الخمر وأكل لحم الخنزير أو نسفها كلياً، وذلك بحرقها وهدمها.

إنَّ كل هذه التَّصرفات تعبر بصدق عن مدى الحقد الذي يكنُّه النَّصاري للمسلمين ولمقدَّساتهم، خاصة وأنَّ طابع الصِّراع بين المسلمين والنَّصارى صراع عقدي بالدرجة الأولى، وفي طبيعة ذلك الصراع يقول محمد عبد الله عنان: "وفي عهد ألفونسو أيضاً وقعت حوادث الحرب الصَّليبية الأولى بالشرق، ولكن البابا أوربان الثاني أصدر مرسومًا يحرم على الإسبان أن يشتركوا في هذه الحرب الصَّليبية لأنَّ أعداء النَّصرانيَّة، أعني المسلمين، يهددونهم داخل أرضهم، ولأنَّ لديهم في شبه الجزيرة وقوداً كافياً لإضرام نار الحرب المقدَّسة"¹.

إنَّ طبيعة الصِّراع العقدي المحتدم بين المسلمين والنَّصارى في بلاد الأندلس وما نتج عنه من فعل شنيع تجاه المعالم الإسلامية، جعلت عواطف الشعراء تتأجج وتلهب حزناً وأسفا لهذا الفعل الجائر، خاصة وأنَّ النُّكبة في الأندلس قد مسَّت الدين في معلمه الكبرى وعطلَّت أهم مصادر الإشعاع العلمي والثَّقافي للمسلمين آنذاك، فالمساجد والجوامع كما نعلم كان لهما الدور الأساسي في ازدهار الحياة العلمية والثَّقافية بالأندلس.

لقد انفرط عقد الخلافة الإسلامية في الأندلس بعد الفتنة الكبرى التي شهدتها قرطبة سنة (399هـ)، إذ انقسمت الدولة الواحدة إلى دويلات متناحرة فيما بينها عرفت بدويلات الطوائف، وأمام هذا الانقسام والتشتت وجد الإسبان الفرصة المناسبة لحرب المسلمين، وظهر ما يعرف بحرب الاسترداد، فسقط إثر ذلك العديد من المدن الأندلسيَّة بأيدي النَّصارى، وتعد مدينة "طليطلة" من أهم المدن التي سقطت آنذاك وخرجت عن حى المسلمين من غير رجعة، ونظراً للموقع الاستراتيجي الهام الذي كانت تتميز به هذه المدينة كونها تتوسط بلاد الأندلس.

¹. محمد عبد الله عنان، (1997)، دولة الإسلام في الأندلس-العصر الثاني دول الطوائف-، ط4، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص402.

كان من البديهي أن يُذهل الشعراء لمثل هذه الفاجعة وهذا السُّقوط، خاصةً وأنَّهم شاهدوا بأنَّ أعينهم التحول الخطير الذي طرأ على هذه المدينة وأهم معالمها الإسلاميَّة، وفي ذلك يقول أحد الشعراء راثيا هذه المدينة:

طُلَيْطَلَةُ أَبَاحَ الْكُفْرَ مِنْهَا حِمَاهَا إِنَّ ذَا نَبَأٍ عَظِيمٍ
فَلَيْسَ مِثْلُهَا إِيوَانُ كِسْرَى وَلَا مِنْهَا الْخَوْرَنُقُ وَالسَّديْرُ
أَلَمْ تَكْ مَعْقَلًا لِلدِّينِ صَعْبًا فَذَلِكَ كَمَا شَاءَ الْقَدِيرُ
وَكَانَتْ دَارَ إِيْمَانٍ وَعِلْمٍ مَعَالِمُهَا الَّتِي طُمِسَتْ تُنْيَرُ
فَعَادَتْ دَارَ كُفْرٍ مُصْطَفَاةً قَدْ اضْطَرَبَتْ بِأَهْلِهَا الْأُمُورُ¹

يتحسّر الشاعر على هذه المدينة الَّتِي كانت محصّنة صعبة المنال، والتي طالما تميزت بحصونها الشامخة، والَّتِي يفوق شموخها إيوان كسرى والخورنق والسدير، وكيف تبدّل حالها وتغيّر من منارة للعلم والإيمان ومعقل للإسلام والمسلمين إلى دار كفرٍ، حيث عبث النصارى بمختلف مقدّساتها، فحولت المساجد إلى كنائس، واستبدل صوت الأذان بأجراس النواقيس. إنّ هذا التّحول الطارئ على المعالم الدينيّة جعل القلوب تنفطر وتطير فزعاً، وفي ذلك يقول الشّاعر:

مَسَاجِدُهَا كَنَائِسُ، أَيُّ قَلْبٍ عَلَى هَذَا يَقِرُّ وَلَا يَطِيرُ؟
فِيَا أَسْفَاهُ يَا أَسْفَاهُ حَزناً يُكَرِّرُ مَا تَكَرَّرَتِ الدُّهُورُ²

ونجد الشّاعر "أبو محمد عبد الجبار ابن حمديس الصّقلي" الذي غادر موطنه صقلية وخطّ الرّحال ببلاد الأندلس، لكنّه كان دائم الشوق والحنين إلى مرتع صباه صقلية وقد ازداد هذا الشوق بعد أن استولى عليها النُّورمان وسقطت بأيديهم، فتجرع "ابن حمديس" بهذا السقوط مرارة الغربة ومرارة الإحساس بفقدان وطنه حين استولى عليه الأعداء، فلم يجد الشّاعر أمامه إلا أن يذرف الدموع الغزار على ما أصاب صقلية، فقد باتت مساجدها كنائساً وغُيِبَ الأذان عنها واستبدل به قرع النواقيس في كلّ وقت وحين، يقول الشّاعر معبراً عن ذلك:

¹. أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، (1968)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، مج4، تح:

إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ص-ص483-484.

². المصدر نفسه، ص484.

أَعَاذِلْ دَعْنِي أَطْلِقِ الْعِبْرَةَ الَّتِي عَدِمْتُ لَهَا مِنْ أَجْمَلِ الصَّبْرِ حَابِسَا
لَقَدَرْتُ أَرْضِي أَنْ تَعُودَ لِقَوْمِهَا فَسَاءَتْ ظُنُونِي ثُمَّ أَصْبَحْتُ يَائِسَا
وَعَزَيْتُ فِيهَا النَّفْسَ لَمَّا رَأَيْتُهَا تُكَابِدُ ذَاءً قَاتِلَ السُّمِّ نَاجِسَا
وَكَيْفَ وَقَدْ سِيَمَتْ هَوَانًا وَصَبَرْتُ مَسَاجِدَهَا أَيَّدِي النَّصَارَى كَنَائِسَا
إِذَا شَاءَتِ الرُّهْبَانُ بِالضَّرْبِ مَعَ الصُّبْحِ وَالْإِمْسَاءِ فِيهَا التَّوَاقِسَا¹

وتتكرر مأساة المساجد في العديد من المدن الأندلسية التي سقطت بيد النصاري، إذ نجد الشاعر "ابن الأَبَّارِ البَلَنْسِي" في سينيته المشهورة، والتي استنجد فيها بالأمر الحفصي، يذكر فيها ما حلَّ بمدينة بلنسية وقرطبة من تغير معالمها الإسلامية إلى نصرانية بعد أن حلَّ الشُّركُ بهما محلَّ الإيمان، فيتأسَّفُ ويبكي لحال هذه المدن وحال مساجدها التي أصبحت بيعاً للنصارى الذين استبدلوا بصوت الأذان قرع أجراس التواقيس. كما يتلَّهف الشاعر بحرقه لاسترجاعها، واسترجاع مدارس تعليم القرآن الكريم، والتي أصبحت أطلالاً بالية لا حياة فيها، وقد كانت من قبل مدارس تصنع مجد الأمة وتروي طلابها وتزودهم بمختلف العلوم والمعارف، يقول الشاعر في نبرة حزينة تحمل في طياتها استنهاض همم المسلمين للدفاع عن مجدهم واسترجاع هويتهم ومقدساتهم التي سلبت منهم:

وَفِي بَلَنْسِيَّةٍ مِنْهَا وَقَرْطَبَةٍ مَا يَنْسِفُ النَّفْسَ أَوْ مَا يَنْزِفُ النَّفْسَا
مَدَائِنُ حَلَّهَا الْإِشْرَاكُ مُبْتَسِمًا جَذْلَانِ وَارْتَحَلَ الْإِيمَانُ مُبْتَلِسَا
وَصَبَرَتْهَا الْعَوَادِي الْعَابِتَاتُ بِهَا يَسْتَوْحِشُ الطَّرْفُ مِنْهَا ضِعْفَ مَا
فَمِنْ دَسَاكِرَ كَانَتْ دُونَهَا حَرَسًا وَمِنْ كَنَائِسَ كَانَتْ قَبْلَهَا كُنُسَا
يَا لِلْمَسَاجِدِ عَادَتِ لِلْعِدَى بَيْعًا وَلِلنِّدَاءِ غَدَا أَثْنَاءَهَا جَرَسَا

¹. ابن حمديس، الديوان، تج: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ص 274.

لَهْفِي عَلَمَهَا إِلَى اسْتَرْجَاعِ فَائِئِهَا مَدَارِسًا لِلْمَتَانِي أَصْبَحَتْ دُرُسًا¹

ونجد الشَّاعر "أبو عبد الله بن الجنَّان الأنصاري الأندلسي" يتحسر على مدينته مرسية التي سقطت بأيدي النَّصارى سنة (641هـ)، فيحزنه أمر تحويل مسجدها الجامع إلى كنيسة، ويثير شجونه هذا التغير الذي طرأ عليه، فقد انعدم فيه صوت المؤذن واستبدل بأصوات النواقيس والأجراس، يقول الشَّاعر في نبرة حزينة:

وَيَا لِمَرْسِيَّةَ الْغُرَاءِ مِنْ بَلَدٍ أَضْحَى مُنِيرًا وَأَمْسَى نُورُهُ خُسْفًا
وَكَانَ صَافِيَّةً لِلدِّينِ خَالِصَةً فَشَارَكَ الشَّرَّكَ فِيهِ مَلَّةَ الْخُنْفَا
وَيَا لَجَامِعِهَا الْأَعْلَى لَقَدْ وَضَعْتَ مِنْهُ مُجَاوِرَةَ التَّثْلِيثِ مَا شَرُفَا
يَكَادُ يَخْرُسُ أَصْوَاتُ الْأَذَانِ بِهِ صَوْتُ النَّوَاقِيسِ وَالْقَسَيسِ إِنْ هَتَفَا²

ونجد الشَّاعر الأندلسي "أبو البقاء صالح بن شريف الرندي" في قصيدته التي يبكي فيها الأندلس عامة والإسلام خاصةً، يرثي حال المساجد وما آلت إليه بعد أن طالتها يد الكفر ويجسد ذلك في صورة تبرز مدى الحزن العميق والتحسُّر على المعالم الإسلامية، يقول الشاعر:

تَبْكِي الْحَنَفِيَّةُ الْبَيْضَاءُ مِنْ أَسْفٍ كَمَا بَكَى لِفِرَاقِ الْإِلْفِ هَيْمَانُ
عَلَى دِيَارٍ مِنَ الْإِسْلَامِ خَالِيَةً قَدْ أَقْفَرَتْ وَلَهَا بِالْكَفْرِ عُمُرَانُ
حَيْثُ الْمَسَاجِدُ قَدْ صَارَتْ كَنَائِسَ فَمَهْنً إِلَى نَوَاقِيسٍ وَصُلْبَانُ
حَتَّى الْمَحَارِيبِ تَبْكِي وَهِيَ جَامِدَةٌ حَتَّى الْمَنَابِرِ تَرْتِي وَهِيَ عِيدَانُ³

¹. أبو عبد الله محمد ابن الأبار القضاعي البلسني، (1999)، الديوان، قراء وتعليق: الأستاذ عبد السلام الهزّاس، مطبعة فضالة، المغرب، ص-ص 408-409.

². ابن جنان الأنصاري، (1990)، تح: منجد مصطفى بهجت، ط1، الناشر، مطابع التعليم العالي ببغداد، ص121.

³. المقرئ التلمساني، مرجع سابق، ص487.

يصور الشّاعر في هذه الأبيات حال الإسلام ومدى حزنه لمفارقته الديار الإسلاميّة بعد سقوط معاقلها، إذ الحنيفيّة تبكي من شدة الحزن والأسى كبكاء المحب لفراق إلف حبيبته، كما نجد الشّاعريكي حال المعالم الإسلاميّة التي تغيرت تغيراً جذرياً، فقد أصبحت المساجد كنائساً، وغدا نداء الأذان صوت ناقوس، كما تعطلّت المساجد عن دورها الديني من إقامة الصلوات وذكر وتسبيح، وكذلك إلقاء دروس العلم على الطلاب، فالمسجد كما نعلم يُعد معهداً للثقافة العربيّة المختلفة والمنهل العذب الذي تستقى منه مختلف العلوم اللّغويّة والشرعيّة والفقهية وغيرها من العلوم الأخرى.

إنّ هذا الخطب الجلل الذي أصاب المساجد جعل الجمد يئن في نظر الشّاعر، فالمحارب تبكي والمنابر ترثي لهذه المحنة. والشّاعر في هذه الأبيات ركز على الجانب الديني بالدرجة الأولى، وذلك من أجل استنهاض همم المسلمين حتى يهبوا للدفاع عن مجدهم، إضافة إلى ذلك فقد توخى الشاعر حسن توظيفه للصّور الشعريّة، والمتمثلة بصورة واضحة في التشخيص حيث جعل من الجمد إنساناً (المحارب تبكي-المنابر ترثي)، ولجأ الشّاعر إلى استعمال هذه الصور حتى يجسد بصورة دقيقة حجم المعاناة التي خيّمَت على بيوت الله عزّ وجل.

وقد أصبح تحويل المساجد إلى كنائس طريقاً وأسلوباً يسلكه النّصارى عقب سقوط كل مدينة أندلسية، إذ نجد الشاعر "أبو عمرو بن المرباط" وهو يتحدث عن الخطب الجلل الذي حلّ بالجزيرة يعرض لحال المساجد التي حولت إلى كنائس، بل إلى أماكن لشرب الخمر وأكل لحم الخنزير يقول في ذلك متأسفاً:

وَاللَّهُ فِي أَقْطَارِهَا لَمْ يُعْبَدِ؟	أَتَعَزُّ مِنْ أَرْضِ الْعَدُوِّ مَدَائِنُ
بِمُتَلَثِّينَ سَطَّوْا بِكُلِّ مُوَجِدِ	وَتُنْذَلُ أَرْضُ الْمُسْلِمِينَ وَتُبْتَلَى
فَاهْلِكْ عَلَيْهِ أَسَى وَلَا تَتَجَلَّدِ	كَمْ جَامِعٍ فِيهَا أُعِيدَ كُنَيْسَةً
وَالْخَمْرُ وَالْخَنَازِيرُ وَسَطَ الْمَسْجِدِ	الْقِسُّ وَالنَّاقُوسُ فَوْقَ مَنَارَةٍ

أَسْفًا عَلَيْهَا أَقْفَرْتُ صَلَوَاتُهَا مِنْ قَانَتَيْنِ وَرَاكِعِينَ وَسُجَّدٍ¹

يبكي الشاعر في هذه الأبيات الجوامع التي طمست معالمها وبدلت كنائس، حيث عمد الشاعر إلى توظيف (كم) الخبرة للدلالة على كثرة عدد هذه المساجد التي عبثت بها يد النصاري، ولهول هذا المصاب يدعو الشاعر غيره للبكاء عليها، وكيف لا يدعوا لذلك ومعظم المساجد صارت أماكن مدنسة، لطختها يد النصاري، حيث غدت أماكن لشرب الخمر وأكل لحم الخنزير. ويعرض الشاعر في هذه الأبيات مجموعة من المفارقات التي حدثت داخل المسجد، حيث المسجد أصبح كنيسة، والإمام الورع التقي حلَّ مكانه القس، والأذان الذي كان يملأ الجو ويعطره بالذكر وقت كل صلاة استبدل بقرع أجراس الناقوس، والمآذن تحولت إلى قباب يوضع فوقها الصليب، وبهذا التحول من التقيض إلى التقيض أصبحت المساجد موحشة قفراً تعيش حالة غربة وسط المسلمين، فلا الأذان يصدح في منبرها، وأركانها خالية من الراكعين والقانتين والساجدين، فكل هذه المشاهد القاسية بحق مدعاة للحزن والحيرة والألم، وهذا ما لمسناه في ثنايا أبيات شاعرنا.

ونجد أيضاً قصيدة يُرجَّح أنها لشاعر المريّة "أبي جعفر بن خاتمة" التي نظمها أثناء سقوط غرناطة، وكانت مدينة رندة قد سقطت من قبل، حيث يبدي فيها تحسره وحزنه الشديد لما آلت بيوت الله عز وجل من طمس لمعالمها، وتحويلها من رموز إسلامية إلى نصرانية. يقول الشاعر:

فَوَاحَسَرْتَا كُمْ مِنْ مَسَاجِدَ حُولَتْ وَكَانَ إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ سَطُورُهَا
وَوَاسْفًا كُمْ مِنْ صَوَامِعَ أَوْحَشَتْ؟! وَقَدْ كَانَ مُعْتَاذُ الْأَذَانِ يَزُورُهَا
فَمَحْرَابُهَا يَشْكُو لِمَنْبَرِهَا الْجَوَى وَأَيَّانَهَا تَشْكُو الْفِرَاقَ وَصُورُهَا
وَكَمْ مِنْ لِسَانٍ كَانَ فِيهَا مُرْتَلٍّ وَحَفَلْ بِخَتَمِ الذِّكْرِ تَمْضِي شُهُورُهَا²

¹. عزوز زرقان، (2008)، شعر الاستصراخ في الأندلس، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،

ص178.

². محمد عبد المنعم خفاجي، (1956)، قصة الأدب في الأندلس، ط1، المطبعة المنيرية، القاهرة، ص50.

فالشَّاعر في هذه الأبيات يبدي تأسفه وحسرتة على هذا التَّغْيِير الجذري، فالمساجد حولت كنائس، وصوامعها عَطِلَ الأذان عنها، ومحارِبُها لقسوة الوضع أصبحت تشكو أمرها للمنابر، كما أنَّ آبي القرآن تشكو هجران وفراق قُرَّائِهَا وذاكِرِهَا الَّذِينَ كانوا يعطِّرون الجَوْ بتلاوة الذكر الحكيم ويحرصون على الاحتفال بختامه كل شهر.

ولا يختلف موقف الشَّاعر "أبي العباس أحمد بن محمد الصَّهَّاجي الأندلسي" المعروف "بالدَّقُون"، عما عاشه الشُّعراء من قبله، إذ يقف حزيناً أسفاً يندب حال الجزيرة وحال المسلمين لما أصابهم من محنة لأمست عقيدتهم بالدرجة الأولى يقول الشَّاعر واصفاً ما حلَّ بهم من ذل وهوان بعد أن سلمهم الأعداء ديارهم وعيثوا بمقدِّساتهم فيتساءل الشاعر في حيرة عن مدى عودة الأمن إلى تلك الربوع؟ وعودة الدين إلى تلك الديار؟:

وَاحْتَلَّ غَرْبَاطَةُ الْغُرَاءِ قَدْ عَدِمَتْ	حَبَّ الْحَصِيدِ وَنَصُرَ اللَّهُ وَالْأَلِ
كَأَنَّهَا الشَّمْسُ فِي أَفْقِ الْعُلَى كُسِفَتْ	فَهَلْ عَلَى طَلَلٍ تَرْمِي بِأَبْطَالٍ؟
وَهَلْ تَعُودُ لِيَالٍ قَدْ سَلَفْنَ بِهَا	وَنَحْنُ لَا نَشْتِكِي تَنْكِيدَ ضَالِّ؟
وَهَلْ يَعُودُ لَهَا الدِّينُ الَّذِي أَنْسَتْ	بِهِ وَقَدْ أَيْسَتْ مِنْ فَتْحِ أَبْدَالٍ؟
فَأَصْبَحُوا لَا تُرَى إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ	كَمِثْلِ عَادٍ وَمَا عَادَ بِأَشْكَالٍ
قَدْ فُرِقُوا كَسَبَا فِي كُلِّ مَنْزِلَةٍ	وَقَدْ سَبَا عَدَهُ مِنْ أَيْدٍ أَوْعَالٍ؟

ويذكر الشَّاعر في نبرة حزينة ما حلَّ بالمساجد، فقد خلت من أهل القرآن وملئت تماثيل يقول في ذلك:

فَلَا الْمَسَاجِدَ بِالتَّوْحِيدِ عَامِرَةً	إِذْ عَمَرُوهَا بِنَافُوسٍ وَتَمَثَّالٍ
وَلَا الْمَنَابِرَ لِلْوُعَاظِ بَارِزَةً	لِلْأَمْرِ وَالنَّهْيِ أَوْ تَذْكِيرِ أَجَالٍ

¹. شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، (1939)، أزهار الرياض في أخبار عياض، ج 1، تج:

مصطفى السقا الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة،

وَلَا الْمَكَاتِبِ بِالصَّبِيانِ أَنْسَةً تَتْلُوا الْقُرْآنَ بِأَسْحَارٍ وَأَصَالٍ¹

يذكر الشاعر في هذه الأبيات أنَّ المساجد قد خلت من أهل التَّوْحِيد الذين كانوا يعمرونها بالذِّكر، وملئت بالتمائيل، والمنابر أقفرت وخلت من العلماء والوعاظ الذين كانوا يعلمون النَّاسَ أمور دينهم ودنياهم، كما أنَّ مكاتب التدريس التي كان الصبيان يعمرونها لتعلم القرآن وحفظه، وكانوا يملؤونها روحانية وسكينة بترتيلهم للذِّكر آناء الليل وأطراف النَّهار، قد أصبحت مُوحشة تشكو الهدوء والصَّمت المريع.

وهذا شاعر من أهل الجزيرة يتأسَّف ويتحسَّر على ما اقترفته محاكم التفتيش من مجازر رهيبة في حق المسلمين، وفي حق مساجدهم التي دَنَسَتْها وجعلتها مزابل للكفار بعد أن كانت أماكن طاهرة، كما يتحسَّر على الصَّوامع التي علَّقت فيها النَّواقيس واستبدل فيها الأذان بقرع أجراسها، يعبر الشاعر عن هذا الوضع بعبارات مليئة بالحسرة والأسى، إذ يقول:

وَأَهَّا عَلَى تِلْكَ الْمَسَاجِدِ سُورَتْ مَزَابِلٌ لِلْكَفَّارِ بَعْدَ الطَّهَارَةِ
وَأَهَّا عَلَى تِلْكَ الصَّوَامِعِ عُلِّقَتْ نَوَاقِيسُهُمْ فِيهَا نَظِيرَ الشَّهَادَةِ
وَأَهَّا عَلَى تِلْكَ الْبِلَادِ وَحُسْنِهَا لَقَدْ ظَلِمَتْ بِالْكَفْرِ أَعْظَمَ ظُلْمَةٍ
وَصَارَتْ لِعِبَادِ الصَّلَيبِ مَعَاقِلًا وَقَدْ أَمِنُوا فِيهَا وَقُوعَ الْإِغَارَةِ
وَصِرْنَا عَبِيدًا لَا أَسَارَى فَنَفْتَدَى وَلَا مُسْلِمِينَ نُنْقِظُهُمْ بِالشَّهَادَةِ²

وإضافة إلى ما عانتَه المساجد في الأندلس من طمس معالمها وتدنيسها من قبل النَّصارى، فإننا نجد بعضها أيضا قد طالها الإهمال من قبل بعض المسؤولين من المسلمين الذين أهملوا شأن الأعباس ولم يراعوا حق الله فيها.

ونجد الشاعر "عبد الكريم بن محمد القيسي الغرناطي" يرثي لحال المساجد في مدينته بسطة، وما أصاب هذه المساجد نتيجة إهمال وضياح الأعباس، وكما نعلم إذا ما عَطِلَت الأعباس وأُهْمِلَ شأنها ضاعت المؤسسات التي أوقفت عليها، وتعد المساجد أهم

¹ . المصدر نفسه، ص 107.

² . المصدر نفسه، ص-ص 112-113.

هذه المؤسسات وأكثرها صلة بالأحباس، حيث "تدلنا كتب النّوازل على أنّ الأحباس في مدينة بسطة وغيرها من المدن والقرى في مملكة غرناطة كانت كثيرة ومتعددة الوجوه، وكان ينتفع منها عدد لا بأس به من المجتمع الأندلسي في ذلك العصر، وقد سرى في هذه المؤسسات الاجتماعية قبل سقوط مملكة غرناطة كثير من الضعف والانحلال، وظهر هذا في إهمال المساجد وتعرضها للضياع والتّهدم والخراب"¹.

وفي هذا الصدد يقول الشّاعر "عبد الكريم القيسي" مخاطباً أهل بلده بسطة ومعاتباً لهم عن الغفلة التي أصابتهم، مبرزاً ما حلّ بالمساجد من ضياع إثر الهوان الذي لاقته من ناظر الأحباس:

يَا أَهْلَ بَسْطَةَ مَا لَكُمْ فِي غَفْلَةٍ عَمَّتْ وَأَمِنَ مِنْ حُلُولِ الْبَاسِ

وَمَسَاجِدَ اللَّهِ الَّتِي فِي مِصْرِكُمْ ضَاعَتْ لِغَفْلَةٍ نَاطِرٍ

ونجد الشّاعر يخاطب الرئيس القاضي الماجد "أبا عمرو ابن منظور" في أمر الأحباس آملاً فيه أن يُعيدَ للأحباس هيبتها ومكانتها وينقذها من الأيادي التي تناولت عليها، كما يذكر أنّ المساجد هي المتضرر الأول نتيجة التهاون في حق الأحباس يقول الشّاعر:

يَا أَيُّهَا الْمَاجِدُ الْمَأْمُولُ جَانِبُهُ لِيَحْفَظَ الْأَحْبَاسِ مِنْ عَادٍ وَمُقْتَرِسٍ

اللَّهُ فِيهَا فَقَدْ ضَاعَتْ وَقَدْ خَرِبَتْ وَأَصْبَحَتْ فِي عِدَادِ الْأَرْبَعِ الدُّرُسِ

وَلِلْمَسَاجِدِ يَسْرِي أَمْرٌ ضَعِيفُهَا إِنَّ حَقَّهَا دُونَ أَحْبَاسِ الْبِلَادِ نُسِي

وَقَدْ أَتَتْكَ بِمَا تَلَقَّاهُ شَاكِيَةٌ مَعَ أَنَّهُمْ أَلَا وَصِفَتْ بِالْعِيَّ

ويرثي الشّاعر لحال المساجد لما أصابها من هوان بعد أن عبثت بها أيدي من أوكلت إليهم أحباسها، فأضاعوا حقها وأهملوها يقول الشّاعر:

فَبِهِ حَيَاةُ مَسَاجِدٍ إِهْمَالُهَا لَطْهُورِهِ يُغْنِي عَنِ التَّبْيِينِ

¹ . محمد ابن شريفة، (1985)، آخر شعراء الأندلس، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ص204.

² . المرجع نفسه، ص ن.

³ . المرجع نفسه، ص205.

تَبْكِي الْعُيُونُ وَلَا تَمَلُّ لِمَا بِيهَا مِنْ ضَيْعَةٍ مِنْ دَمْعِهَا يَهْتُونُ¹

ويذكر الشاعر الحالة التي آلت إليها المساجد بعد الإهمال الذي أصابها، فجعلها تشكو بلسان حالها عن مصابها، وتتحسر على قوم بنوها وأحاطوها بالاهتمام والرعاية حيث كسوها وجعلوا عليها من الأوقاف ما يسد جميع حاجاتها وشؤونها، ولكن ما لبثت هذه الأوقاف أن أصبحت من نصيب من لاحق له بها، في حين تركت المساجد للخراب والهدم والضِّياع:

فَتَهَدَّمَتْ بَعْدَ الْبِنَاءِ وَأَصْبَحَتْ مِنْ عُرْيِهَا فِي خَلْعَةِ الْمَسْكِينِ

تَشْكُو لَكُمْ بِلِسَانِ حَالٍ قَائِلٍ مَنْ ذَا الَّذِي يَبْنِيَنِي أَوْ يَكْسُونِي

لَهْفِي عَلَى قَوْمِ بَنَوْنِي وَاعْتَنَوْا مِنْ وَقْفِهِمْ لِي بِالَّذِي يَكْفِينِي

مَاتُوا فَمَوْتِي بِالْخَرَابِ مُحَقَّقٌ إِذْ بَعْدَهُمْ لَمْ يَبْقَ مَنْ يُحْيِينِي

وَجَمِيعُ أَوْقَافِي، عَلَى مَا حَلَّ بِي مِنْ فَاقَةٍ، تُجَبَى وَتُؤْكَلُ دُونِي²

5. خاتمة: من خلال هذه الدراسة التي قدمناها نستخلص جملة من النتائج نجملها في النقاط الآتية:

- لقد كان لريثاء المساجد حضور في الشعر الأندلسي، وهو رثاء يندرج ضمن رثاء المدن، فالشاعر الأندلسي حين بكى المدن الأندلسية خاصة التي سقطت بيد النصارى أثار شجونه ذلك التحول المريع الذي أحدثه النصارى على المعالم الدينية الإسلامية، فبكى هذه المساجد وذكر كل التحولات التي طرأت عليها، فقد تغير حالها من معلم ديني إسلامي إلى معلم ديني نصراني: حيث أصبح (المسجد بناء كنسيا) و(صوت الأذان استبدل به قرع النواقيس)، و(الإمام الورع حلَّ مكانه القسيس).

- من خلال بحثنا هذا لم نعر على قصائد خالصة أفردتها شعراء الأندلس لريثاء المساجد وإنما كان ذلك في أبيات ومقطوعات شعرية متناثرة بين ثنايا قصائد رثاء المدن.

¹. حسناء بوزويطة الطرابلسي، (2001)، حياة الشعر في نهاية الأندلس، ط1، دار محمد علي الحامي،

صفافس، تونس، ص693.

². المرجع نفسه، ص ن.

- إِنَّ الشُّعراء في رثائهم للمساجد، لم يقفوا الموقف الانهزامي المتحسّر على ما فُقِدَ من عزٍّ فحسب، وإنّما اتخذوا منه أيضاً رسالة لإيقاظ ضمائر المسلمين داخل بلاد الأندلس وخارجها حتى يهبوا للدفاع عن مجدهم، وذلك بإثارة عواطفهم الدينية من خلال تصويرهم لحال المساجد وما آلت إليه.
- لقد اتضح لنا من خلال هذه الدراسة أن النصارى قد استعملوا أساليب مختلفة للعبث بالمعالم الدينية الإسلامية وذلك بحرقها أو تحويلها إلى كنائس أو تدنيسها بجعلها أماكن لشرب الخمر وأكل لحم الخنزير.
- إضافة إلى ما لحق المساجد من طمس لمعالمها وتدنيسها من قبل النصارى، فإنّها لم تسلم أيضاً من إهمال أبنائها من المسلمين الذين عبثوا بحقها من الأحباس وذلك قبيل سقوط مملكة غرناطة، مما جعل هذه المساجد عرضة للضياع والهدم والخراب، وهذا ما لمسناه في شعر "عبد الكريم القيسي" آخر شعراء الأندلس حين ذكر ما آلت إليه حال بعض المساجد آنذاك.

6. قائمة المصادر والمراجع:

- (1) ابن جنان الأنصاري(1990)، الديوان، تحقيق: منجد مصطفى بهجت، ط1 الناشر: مطابع التعليم العالي، بغداد.
- (2) ابن حمديس: الديوان، صححه وقدم له: إحسان عباس، دارصادر، بيروت، لبنان.
- (3) أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا(1979)، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، ج2، دارالفكر، سوريا.
- (4) أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي: كتاب العين، تح: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، ج8، دارومكتبة الهلال.
- (5) أبو عبد الله محمد ابن الأتبار القضاعي البَلَنَسِي (1999)، الديوان، قراءة وتعليق: الأستاذ عبد السلام الهَرَّاس، مطبعة فضالة، المغرب.
- (6) أحمد بن محمد المقرئ التلمساني(1968)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، مج4، دارصادر، بيروت، لبنان.
- (7) حسناء بوزويطة الطرابلسي(2001)، حياة الشَّعر في نهاية الأندلس، ط1، دارمحمد علي الحامي، صفاقس، تونس.
- (8) سامية جباري(2016)، تجليات رثاء المدن والممالك في الشعر الأندلسي، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، المجلد:9، العدد:1.
- (9) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري: نهاية الإرب في فنون الأدب، تح: يحي الشَّامي، ج5، دارالكتب العلميَّة، لبنان.
- (10) شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ التلمساني(1939)، أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، ج1 مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.
- (11) عبد الله عبد الرّحيم السُّوداني(1999)، رثاء غير الإنسان في الشَّعر العبَّاسي، ط1 إصدارات: المجمع الثقافي أبوظبي، الإمارات العربيَّة المتحدة.
- (12) عزَّ الدين إسماعيل(1975)، في الأدب العبَّاسي الرُّؤية والفن، دار النهضة العربيَّة لبنان.

- 13) عزوز زرقان(2008)، شعر الاستصراخ في الأندلس، ط1، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان.
- 14) علي الغيلوفي(2019)، إنشائيّة القصيدة في رثاء البلدان إلى نهاية القرن السابع الهجري، ط1، زينب للنشر والتوزيع، تونس.
- 15) محمد ابن شريفة(1985)، آخر شعراء الأندلس، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.
- 16) محمد رجب البيومي(1980)، الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير، ط1، الناشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
- 17) محمد عبد الله عنان(1997)، دولة الإسلام في الأندلس، العصر الثاني دول الطوائف، ط4، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- 18) محمد عبد المنعم خفاجي(1956)، قصة الأدب في الأندلس، ج2، ط1، المطبعة المنيريّة، القاهرة.
- 19) محمد عبد المنعم خفاجي(1999)، الحياة الأدبيّة في العصر الجاهلي، ط1، دار الجيل، لبنان.